الأمثال في القرآن

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم لينتظم به صلاح المعاش والمعاد، وجعله منزهًا عن العوج، وضرب الله فيه للناس من كل مثل ، لتتحقق لهم الموعظة، وليتجنبوا المضار، ويأخذوا المنافع كما قال تعالى: « وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » [الزمر: ٢٧، ٢٨].

والصلاة والسلام على من تلقاه من ربه، وبلّغه وبيّنه، حتى تركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعدُ:

فهذه سلسلة جديدة نتكلم فيها عن «الأمثال في القرآن»، ولقد ضرب الله عز وجل في كتابه العزيز أمثالاً للناس لعلهم يتذكرون ويتفكرون ويتقون، فالمثل اذن تقريب لمفهوم أعمق من المثل ، لصورة أوسع منه ، وتوضيح وفهْمُ هذه الأمثال على الوجه الذي يريده الله عز وجل نعمة عظيمة من أجل النعم، فذلك يورث تفكرًا وتدبرًا، ويحمل على التقوى بإذن الله.

والذين يعقلون هذه الأمثال وصفهم الله عز وجل بـ «العالمون» إذ قال عز وجل: « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » [العنكبوت: ٤٣]، ولا يخفى على ذي لب ما جعل الله في الأمثال من الحكمة وأودع فيها من الفائدة وناط بها من الحاجة، فإن ضرب الأمثال في القرآن يُستفاد منه أمور كثيرة منها:

لفت النظر إلى أمثال القرآن:

لقد لفت الله نظر عباده إلى أمثال القرآن في قوله سبحانه: «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » [إبراهيم: ٢٥]، وقوله جل وعلا: «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » [النور: ٣٥]، وقوله سبحانه: «وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ » [إبراهيم: ٤٥]، وقوله تبارك وتعالى: « وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » [العنكبوت: ٤٣]، ولفت الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نظرنا كذلك إليها، وأمرنا بالاعتبار بها في الأحاديث الشريفة مثل

حديث البخاري ومسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مثل الذي يذكرُ ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت» [متفق عليه]. وفي لفظ لمسلم: «مثل البيت الذي يُذكرُ الله فيه والبيت الذي لا يُذكر الله فيه مثل الحي والميت». وقد عدّ الإمام الشافعي -رحمه الله- أمثال القرآن من الأمور التي يجب على المجتهد معرفتها من علوم القرآن، فقال: «ثم ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته؛ المثبتة لاجتناب معصيته، وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل». [البرهان للزركشي ١/٤٨٦].

وقال الماوردي: «من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه لانشغالهم عن الامثال، وإغفالهم المثلات». [الإتقان للسيوطي ٤/٣٨].

تعريف المثل:

أصل المثل في اللغة: قال الخليل بن أحمد: «المثل ما يُشبّهُ به الشيء ليُفهم». والعرب تقول: مَثَلٌ، ومِثلٌ ونظيرهما من الكلام الشِبه والشبَه والإثر والأثر والبدل. [لسان العرب ٨/٢٠٠، والقاموس المحيط ٤/٥٥].

والناس يعلمون ما حلّ بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها، وكذبت رسله من عقوبات، فمن أمة مُسخت قردة وخنازير، إلى أمة أُهلكت بالرجفة، وأخرى بالريح أو الخسف أو الغرق، وذلك هو المثلات، والمثلات: العقوبات واحدها مثلة - بفتح الميم، وضم الثاء - كصدقة وصدقات. وقال مجاهد: المثلات: الأمثال. والتمثيلُ من المُثلَة، وهو: جدع الأنف والأذن، وجَبُّ المذاكير (أي استئصالها). قال ابن منظور رحمه الله: مثلت بالحيوان: أمثل به مثلاً، إذا قطعت أطرافه وشوهت به ومثلت بالقتيل: إذا جدعت أنفه وأذنه وشوهت به.

أنواع المثل في القرآن:

يرى بعض الباحثين أن الأمثال القرآنية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الأمثال المصرحة أو القياسية. وهي التي صرح فيها بلفظ المثل أو ما يقوم مقامه كقوله تعالى: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا» [البقرة: ١٧]. «مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ» [الرعد: ٣٥]، «مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ» [النور: ٣٥]، «وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ» [النور: ٣٩]، «أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ» [النور: ٤٠].

والثاني: ما يُسمى بالأمثال المرسلة، وهي جمل قد أُرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه وكثر التمثل بها؛ لما فيها من العظة والعبرة والإقناع، وقد اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن الكريم وشيوعها عند المسلمين ولم تكن أمثالاً في وقت نزوله، وهي في جملتها مبادئ خُلقية ودينية مركزة مثل قوله تعالى: «لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ» [آل عمران: ٩٢]، «لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ» [النجم: ٥٨]، «ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ» [يوسف: ٥١]، «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ» [يس: ٧٨]، «ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ» [الحج: ١٠]، «قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ» [يوسف: ٤١]، «أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ» [هود: ٨١]، «وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ» [سبأ: ٥٤]، «لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ» [الأنعام: ٦٧]، «وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ» [فاطر: ٤٣]، «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ» [الإسراء: ٨٤]، «وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» [البقرة: ٢١٦]، «كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» [المدثر: ٣٨]، «مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ» [المائدة: ٩٩]، «مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ» [سورة التوبة: ٩١]، «هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ» [الرحمن: ٦٠]، «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ» [البقرة: ٢٤٩]، «ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ» [يونس: ٩١]، «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ» [الحشر: ١٤]، «وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ» [فاطر: ١٤]، «كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» [المؤمنون: ٥٣]، «وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ» [الأنفال: ٢٣]، «وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ» [سبأ: ١٣]، «لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» [البقرة: ٢٨٦]، «قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ» [المائدة: ١٠٠]، «ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ» [الروم: ٤١]، «ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ» [الحج: ٧٣]، «لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ» [الصافات: ٦١]، «وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ» [ص: ٢٤]، «فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ» [الحشر: ٢].

الثالث: ما يسمى بالأمثال الكامنة، وهي أمثال لم تُضرب لبيان حال خاصة، ولا لصفة معينة، ولا لتلخيص حادثة ووقعت في زمن من الأزمان لم يصرح فيها بالتمثيل من قريب ولا من بعيد، ولكن يدل مضمونها على معنى يشبه مثلاً من أمثال العرب المعروفة، أي: أنها أمثال بمعانيها لا بألفاظها، فالتمثيل فيها كامن غير ظاهر، لهذا أسموها بالأمثال الكامنة.

قال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب يقول: سمعت أبي يقول: سألت الحسين بن الفضل فقلت: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: «خير الأمور أوساطها». قال: نعم في أربعة مواضع، قوله تعالى: «لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ» [البقرة: ٦٨]، «وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ

ذَٰلِكَ قَوَامًا » [الفرقان: ٦٧]، وقولة تعالى: «ولاتجعل يدك مغلولة الي عنقك ولاتبسطها كل البسط» وقولة: «وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا » [الإسراء: ١١٠].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: «من جهل شيئًا عاداه»؟ قال: نعم في موضعين قوله تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ » [يونس: ٣٩]، وقوله: «وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ » [الأحقاف: ١١].

قلت: فهل تجد في كتاب الله: «احذر شر من أحسنت إليه». قال: نعم. قوله عز وجل: «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ » [سورة التوبة: ٧٤].

قلت: فهل تجد في كتاب الله «ليس الخبر كالعيان». قال: في قوله تعالى: «قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » [البقرة: ٢٦٠]. قلت: فهل تجد «في الحركات البركات» قال: في قوله تعالى: «وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً » [النساء: ١٠٠]. قلت: فهل تجد (كما تدين تدان)، قال: في قوله تعالى: «مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ » [النساء: ١٢٣]. قلت: فهل تجد فيه قولهم: «حين تقلي تدري»؟ قال: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا » [الفرقان: ٤٢]. قلت فهل تجد فيه: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين». قال: «قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ » [يوسف: ٦٤].

قلت: فهل تجد فيه: «من أعان ظالمًا سُلّط عليه»؟. قال: «كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ » [الحج: ٤]. قلت فهل تجد فيه قولهم : لاتلد الحية الا حية؟ ، قال في قوله تعالى: «وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا » [نوح: ٢٧]. قلت: فهل تجد فيه «للحيطان آذان» قال: في قوله تعالى: «وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ » [سورة التوبة: ٤٧]. إلى غير ذلك مما نقله السيوطي في الإتقان.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن النوع الثالث ليس داخلا في الأمثال على أي صورة من الصور؛ لخلوّه من وجه المشابهة بين الممثل والممثل له، وقالوا: إن ما ذكره السيوطي وغيره عن الحسين بن الفضل، ضرب من تدريب القريحة على استخراج النظائر القرآنية لبعض ما تتمثل به العرب في عصورهم المختلفة من الأقوال الحكيمة التي أوجزت حادثة من الحوادث أو دلت على معنى من المعاني المعقولة.

وأما النوع الثاني: فهو من قبيل التشبيهات الضمنية، التي تؤكد المعاني وتبرزها إبرازًا يجعلها متميزة في النفس أكمل تمييز، أو هو من قبيل الكنايات التي تأتي بالمعنى مصحوبًا بدليله فتجري مجرى الحكم وهو كثير في القرآن.

ومقصودنا في هذا البحث إنما هو النوع الأول؛ إذ هو المراد عند الإطلاق، ويأتي النوع الثاني تبعًا له ويدخل في سياقه ضمنًا، على وجه من وجه التشبيه. [الأمثال القرآنية دراسة تحليلية، د. محمد بكر إسماعيل].

ضرب الأمثال من طبائع الناس

وضرب الأمثال مما فُطر عليه الناس على اختلاف شعوبهم وأزمانهم، بناء على التجارب والوقائع في أحداث الحياة، وفي تشبيه بعضهم ببعض، وكذلك فعل الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن المحظور على الناس أن يشبّهوا الله بشيء من خلقه، أي أن يجعلوا الله مثلاً يشركون به أو يقيسون عليه، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال، لقوله تعالى: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ » [النحل: ٧٤]، وهذا مثل قوله تعالى: «فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » [البقرة: ٢٢] أي: تعلمون ببداهة العقول أن الخالق لا يشبه المخلوق، وتعلمون بوحي الله أن الله ليس كمثله شيء.

ويقول البيضاوي في تفسير تعليله سبحانه نهي عباده أن يضربوا لله مثلاً بقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » [النحل: ٧٤]، أي: إن الله يعلم فساد ما تعولون عليه من القياس، أو يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمون، أو يعلم كيف تضربون الأمثال وأنتم لا تعلمون ذلك حق العلم، وما ضربه صلى الله عليه وسلم من أمثال الله تعالى، كقوله في الحديث الشريف: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة» [رواه البخاري ومسلم]؛ فذلك من باب إظهار مدى رحمة الله بعباده.

ضلال الكفار في ضربهم الأمثال:

وكما ضل الكفار في ضربهم الأمثال لله عز وجل، وقد نهاهم الله عن ذلك، ضلوا في ضربهم المثل للرسول صلى الله عليه وسلم حتى قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: «انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » [الإسراء: ٤٨]، فقد عجب الله من صنيعهم كيف قالوا عنه تارة: إنه ساحر، وتارة إنه مجنون، وتارة إنه شاعر، فضلوا؛ لتناقض كلامهم في قولهم: مجنونٍ، ساحر، شاعر. وضلوا عن الحق، فلا يجدون سبيلاً إلى الهدى، ولا يجدون حيلة في صدّ الناس عنك يا أيها النبي.

وللحديث بقية، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.